محمد أندلسي (*)

الترجمة كاستراتيجية للفكر

إن الفكر لا يكون فكرا إلا إذا أفصح عن رغبته في الخروج عن ذاته، وعن لغته الأصلية. أمّا إذا اكتفى بذاته، وظل سجينا داخل شرنقة لغته، وحبيسا لثنائيات ثقافته وبداهات حسّها المشترك، فإنه يتجمّد ويموت، أي يتوقّف عن الصيرورة والتجدّد والحياة. وبما أنّ الترجمة قد برهنت راهنا على أنها الآلية التي لا يمكن الاستغناء عنها في تجديد حياة الفكر وإخصاب المساءلة الفكرية عبر توليد الاختلافات، وإقحام عناصر المغايرة والغرابة والمفاجأة والهجانة، فلقد غدت اليوم أكثر من أي وقت مضى « قضية الفكر » بامتياز. بل لقد أصبحت الترجمة اليوم استراتيجية للفكر في محاولته لإعادة قراءة تراثه وتجاوزه، وفي محاولة انفتاحه على آخره الذي ليس سوى لا مفكّره، واختلافه.

هكذا تتّحد استراتيجية الفكر باستراتيجية الترجمة، فإذا كانت استراتيجية الفكر اليوم هي استراتيجية جينيالوجية وتفكيكية: حيث تسعى من جهة إلى إزالة الأقنعة عن الأصول وفضح الأوهام التى تنطوي عليها وتتغذى منها، كما تسعى من جهة أخرى إلى تفكيك اللغة الواحدة، والمعنى الواحد، والهوية الواحدة؛ فإنّ استراتيجية الترجمة اليوم هى استراتيجية « لتوليد الفوارق، وإقحام الآخر في الذات »، وإقامة فكر الاختلاف.

لكن الترجمة لم تصبح بمنزلة استراتيجية للفكر، إلا بعد أن تمّت خلخلة بنائها الميتافيزيقى وجذرها اللاهوتى، أى إلا بعد أن تمّ تحريرها من لاهوت الأصل، وميتافيزيقا التطابق والاستنساخ. فصارت الترجمة ترتكز- كما يقول دريدا- على الإحساس بالفقد الذي تعانى منه ثقافة ما في لحظة من تاريخها. أو كما قال هولدرلين، لقد صارت تحمل « العنصر الغريب » الذي من شأنه أن يحفّز ظهور « العنصر الخصوصي » المتعلّق بالثقافة المنقول إليها.

يتأسّس المفهوم الميتافيزيقى-اللاهوتى للترجمة على القول بأنّ « الترجمة ممكنة » شريطة أن تتحكّم فيها نظرة أخلاقية قوامها الوفاء للأصل[1]، ومعيارها هو تحلّى المترجم بأخلاق الفناء والتنسّك والانمحاء[2].

إنّ الترجمة ممكنة، لأنه مادام المهمّ فيها هو نقل المعنى، ومادام المعنى سابقًا على الكتابة واللغة، فبإمكانه أن ينتقل من لغة إلى أخرى، ومن دال إلى آخر. عملية الترجمة إذن كنقل لمحتوى دلالي من شكل في الدلالة إلى شكل آخر، عملية ممكنة. أمّا الصعوبات التى قد تطرحها عملية النقل هاته، فيمكن سقهرها بسهولة. فإذا كانت الصعوبة تتمثّل في كون أنّ الترجمة تريد أن تضع نصّا « يقول الشيء ذاته »، ويروم الإمساك بالماهية ذاتها. إذا كانت الصعوبة التى تواجه الترجمة كعملية نقل للمعنى من لغة إلى أخرى ومن ثقافة إلى أخرى تتمثّل في تعدّد اللغات، وتباين الثقافات، فإنّ هذه الصعوبة يمكن قهرها من خلال إنكار أو حجب « المسافة الزمنية » التي تفصل النصّ عن ترجمته،

(*) كلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس- المغرب.

والأصل عن نسخته، وذلك عن طريق وفاء المترجم للأصل، عبر محو اسمه ليسمح لكاتب النصّ الأصلي أن يتكلّم بلغة أخرى دون أن يفقد هويته، ودون أن يضيّع معناه.

هكذا يمكن قهر الصعوبة التي تطرحها عملية إنتاج « نسخة طبق الأصل » للنصّ المصدر، إذا استطاع المترجم أن يكتب النصّ باسم صاحبه الأصلي، وهو يستطيع ذلك إذا تمكّن من كتابته دون توقيعه.

إنّ عملية إدراك المعنى الأصلي للنصّ، وبلوغ حقيقته، ثمّ العمل على نقلها واستنساخها عبر ترجمة وفية ومخلصة لهويته الظاهرة، تشكّل البنية الميتافيزيقية واللاهوتية للترجمة، بل إنها تمثّل « ماهيتها الأفلاطونية ». وليست الترجمة في صورتها الأفلاطونية سوى محاولة لضمان انتصار « النسخة الأيقونة » عن « النسخة السيمولاكر ». ليست الأفلاطونية سوى محاولة لتأسيس المجال الذي يعجّ بالنسخ الأيقونة، الذي هو مجال التمثل، حيث يتمّ استبدال العلاقة الخارجية، علاقة النص بالحدث وبالواقع، بالعلاقة الداخلية الباطنية، علاقة النص مع الأصل والنموذج والأساس.

إنّ ما يشكّل بنية الترجمة بما هي « أفلاطونية »، هو إمكانية وجود نسخ أيقونات، أي نسخ تترجم الأصل وتنقله. « فمادام الأيقون يهدف إلى كشف الخفي وإيضاحه، سواء كان الأيقون لغة أم رسما أم نحتا، (...) فإنّ الكشف والإبراز يجب أن يكونا في أتمّ شكل وأوفاه لتجذير التمام والكمال وترسيخ القدسي وتجسيد الفضائل. وفي ضوء هذا المنظور يصبح عنصر المماثلة أو المشابهة أحد المكوّنات الجوهرية للأيقون »[٣].

تفترض الترجمة كبنية أفلاطونية عالما نموذجيا هو عالم الأصول، أي تفترض نصّا أصليا تريد هي أن تكون نسخة عنه، شبيهة به ومماثلة له، أمينة في نقله، أي بكلمة واحدة، نسخة أيقونة. وهذا الفهم الميتافيزيقي للترجمة، يضعنا في المناخ الأخلاقي الذي تطرح فيه عملية الترجمة حيث ينظر إليها إمّا كوفاء أو كخيانة.

إنّ هذا الفهم االميتافيزيقي للترجمة يقوم على عدّة افتراضات أساسية تتعلّق بمفاهيم النص والكتابة واللغة والهوية والحقيقة والزمان...

فالترجمة بهذا المعنى الميتافيزيقي تفترض وجود « نصّ أصلي » يحمل معنى واحدا يشكّل ماهيته. وأنّ هذا النصّ كتب من أجل حفظ المعنى وصونه أثناء نقله وتبليغه. فهو نصّ موقّع يحمل إسم صاحبه. نصّ له هوية ينبغي ألاّ تضيع في عملية الترجمة. نصّ ينتسب إلى أصل أوّل، ولغة أمّ منهما يستقي مميزاته ويبقى بقربهما وجوارهما حتى يحصّن هويته ضدّ الضياع والإتلاف والذوبان.

يتّضح من خلال هذه الافتراضات أن الميتافيزيقا واللاهوت يريدان أن يقاوما تعدّد الألسن واختلاف الثقافات عبر التقريب بينها، اعتقادا منهما أنّ هناك أصلا ووحدة يجب أن يرتدّ إليها تعدّد اللغات والثقافات؛ ذلك لأن كلّ لغة أو ثقافة تنطوي في أصلها على وحدة. لكن ما القول إن كان الأمر على العكس، إن كانت كلّ لغة، وكلّ ثقافة تنطوي على تعدّد، وأنه في الأصل يوجد الاختلاف؟ أليس واقع مجتمعاتنا وثقافاتنا وألسننا يخبرنا بأننا نعيش لغات داخل اللغة الواحدة، وثقافات داخل الثقافة الواحدة؟ ترى-إذا كان

الأمر كذلك- هل تستطيع الترجمة أن توحّد هذا التعدد، وأن تختزله إلى أصل واحد؟

هناك دوما نصوص أخرى تكون في أغلب الأحيان من اللغة نفسها ليست حاضرة في النص الأصلي ولكنها مرتبطة به. هذا ما يطلق عليه بلونشو« الترجمة الخاصة بالنص الأصلي ». إذ كلّ نصّ ينطوي صراحة أو ضمنا على نصوص مخالفة. بهذا المعنى فكلّ نصّ وإن ظلّ غير مترجم فهو في أصله ترجمة، « وليست الترجمة عملا ثانويا يأتي ثانية بعد كتابة النص ». بل إنّ فكرة الترجمة - كما يقول دريدا - هي في أصلها مطلب صميمي لكل نصّ، إنها إلزام بالبقاء لما كان مخطوطا في بنية الأثر نفسه، الذي يطمح إلى النمو في اللغات الأخرى، لهذا فهو يشكّل طلبا بالمعنى القوي للكلمة: فهو يشترط ويوعز وينادي ويوجّه، مما يجعل من النصّ (الأصلي) المدين الأوّل: مدينا بإزّاء المترجم. وعليه، فكلّ نصّ غير مترجم « يبكي » مترجمه ويعيش حداده عليه. وكما في كلّ فعل هبة وإعادة وإيصال وتحويل، يبزغ هنا نوع من التناقض الوجداني: مزيج من الكره والمحبّة لا بإزّاء شخص الكاتب المترجم، بل بإزّاء النص نفسه ولغته. وهذا كلّه توجّهه أمنية قران أو زفاف بين لغتين عبر نصّ يظل في الترجمة هو نفسه ويصير في الآن ذاته شيئا آخر[٤].

هكذا فالمترجم مبدع في اللغة، ومن أجل ذلك، فلا يكون عليه أن ينقل النص وينسخه، ولا أن يهتمّ بتبليغ معناه الأصلي، إذ « لا علاقة للترجمة بالتبليغ والإخبار ». بل إن الترجمة هنا هي تأويل بالمعنى الهايدغري، وتحويل بالمعنى الدريدي:

فالترجمة كما يؤكّد ذلك هايدغر، هي العملية الفكرية التي نمثل عن طريقها أمام فكر الآخر ولغته nous-traduire ، كما يمثل المتهم أمام المحكمة. ففي كل ترجمة وكتابة، ليس هناك تملّك للحقيقة، وإنما هناك الاستيهام، أي الرغبة في تملّك الحقيقة دون أن يكون هناك معنى حقيقي.

كما أنّ الترجمة بالمعنى الدريدي هي تحويل، لكنه تحويل ليس في اتجاه واحد: فالترجمة لا تحوّل النصّ المترجم فحسب، فهي عندما تحوّله تحوّل في ذات الوقت اللغة المترجمة كذلك. فالمترجم، كما يقول « والتر بنيامين »: « يفجّر الأطر المنخورة للغته، فهولدرلين وفاوست ودورج...كلّهم عملوا على توسيع حدود اللغة الألمانية ».

إنّ هذا النوع من الممارسة للترجمة بما هي تحويل وتأويل، يفترض بطبيعة الحال نوعا من « العنف »، إذ هو يقتضي تكسير نحو اللغة المنقول إليها وحفر فيها بنية لاستقبال اللغة الأخرى[٥]. لقد كان الجاحظ، في معرض تكذيبه في مؤلفه « الحيوان » لإمكان الضلوع في أكثر من لسان، وبالتالي لإمكان « الترجمة بلا خسارة »، قد أطلق عبارة بالغة الدلالة والحيوية في الفترة المعاصرة: « ما دخلت لغة على لغة أخرى إلاّ وأدخلت عليها الضيم ». لغة تعنّف اللغة الأخرى وتحرجها وتتسلّط عليها. ومثل هذا العنف لا يمكن تفاديه في التعدد اللغوي أو الثقافي، وفي الترجمة. والذي يجب هو الوعي به والاضطلاع به بمعرفة. بفضله تدفع اللغات لقول أفضل ما فيها. إنه عنف يراه دريدا شبيه بالعنف الذي تولّده « قراءة القصيدة ». فالقصيدة تمارس في البدء عنفا على لغتها وتعنّف لسانها الأصلي. فالشاعر هو القادر على أن يجبر لسانه على أن « يحبل» بدلالات أخرى وإمكانات أداء أخرى، يستولدها منه أو فيه، ولو كان ثمن ذلك إخضاع

لسانه لعملية قيصرية. وعلى غرار هذا العنف الأصلي، تمارس الترجمة عنفا على لغة كتابتها، وعلى اللغة المترجم منها، لتجعلهما يسمحان بأكبر استقبال ممكن لزفافهما، إذ « ليست الترجمة غير خاتم الزفاف » هذا. لكن مع ذلك، على الترجمة كتأويل وتحويل ألاّ تجرّد النصّ من أسلحته، أو من حججه، بأن تهتك جميع أسراره، وألاّ تسقط في الادّعاء العقيم باستنفاد القول بخصوصه. فهذا النمط من العنف لا معنى له، وليس يمكن اغتفاره، لأنه في كل عمل هناك رصيد لا يقبل المساس.

هكذا نستنتج بأنّ المفهوم التقليدي للترجمة بما هو « محاكاة للنص الأصلي »، هو مفهوم يوحى بكثير من الجمود. وفي هذا السياق يقول « جون جونستون » في مقال له يحمل عنوان « الترجمة صورة زائفة »: « إن المفهوم التقليدي للترجمة بصفتها محاكاة لنص أصلي أو نقلا له إلى لغة ثانية يبرهن ليس على أنه غير كاف في التطبيق فحسب، بل أيضا أنه يقوم على نظرة جامدة ومغالطة للغة. والافتراض القائل بأنّ اللغة لا تتغير وبأنّها تعرّف بشكل تام، وبأنّ العمل الفردي كامل ومطابق لذاته، افتراض لا يمكن الدفاع عنه. ذلك لأنّ التغييرات التاريخية تحدث في اللغة الأصلية:إنّ معاني المفردات تتغيّر، كما تتغيّر أيضا التعابير والأشكال الاصطلاحية عبر العصور. وهناك كذلك الاحتمال بأنّ المميزات « المرئية » لأسلوب الكاتب ستتغيّر في نظر الأجيال القادمة، وقد تصبح الميول الأسلوبية التي تبدو واضحة أقلّ وضوحا، بينما تصبح تلك الأساليب التي كانت كامنة فقط أكثر وضوحا وأكثر أهمية في نظر أجيال القرّاء اللاحقة. لكن الفشل الحقيقي للنظرية التقليدية هو كونها لا تهمل فقط هذه العوامل التاريخية، بل أكثر من هذا تهمل التأثيرات التي تحدثها الترجمة في اللغة الأصلية واللغة الثانية معا » [٦].

وهكذا وعلى ضوء هذا الفهم، تتحوّل الترجمة من مجرّد كونها نقلا لنص من لغة إلى أخرى، إلى فعل دينامي وإبداعي يربط لغة الأصل بلغة الهدف، والماضي بالحاضر، في عملية انصهار هي عبارة عن أخذ وعطاء. وفي هذا السياق تستمدّ الترجمة قوّتها أيضا من النموذج الذي يقترحه « ستاينر » في كتابه « بعد بابل » After Babel، والذي جعله يقول: « إننا نعود إلى مسألة المرآة التي لا تعكس الضوء فقط بل تولّده. فالنص الأصلي يستفيد من توجيهات العلاقة المختلفة والمسافة التي تتقرّر بين النص الأصلي وترجماته »[٧].

إن الافتراض الأكبر الذي يوجد في أساس التصوّر الميتافيزيقي للترجمة، يكمن في التصوّر الأداتي للغة، أي في افتراض أنه بإمكاننا قهر اللغة والتحكّم فيها. متناسيا بذلك كون اللغة الوسيلة التي تفكّر بنا، وهي التي تتكلّم عبرنا. أليس الإنسان، كما يقول هايدغر، لا يتكلّم إلا استجابة للغة عندما يصغى لما تقوله وينصت إليها فاللغة هي « مأوى حقيقة الوجود »، ومن ثمَّ فهي ليست سوى « الكيفية التي يكشف فيها الوجود عن ذاته ويحجبها في الوقت نفسه ». ألا تصبح الترجمة، والحالة هاته، « لغة ضد اللغة »؟ أليست الترجمة كالكتابة، « خيانة للغة »؟ ألا تنطوي على قسط من الغشّ والخداع؟ أليست إقحاما للغرابة فيما ألفناه في اللغة؟ إذا كان الأمر كذلك، فلن تعود اللغة مجرّد أداة تعبير، ولن تعود الترجمة مجرّد جسر لنقل المعنى وتبليغه، وإنما تصبح ممارسة دالة، وبؤرة

للتناحر والصراع بين إرادات القوى التى تستحوذ على النصوص واللغات. إنها « ملتقى لمنظورات متباينة ». فالنصّ حسب « إيزر » يتكوّن من عدّة منظورات « ترسم الخطوط العريضة لوجهة نظر المؤلف، كما تمهّد لما ينبغى على القارئ تصوّره. والرواية هى خير مثال على ذلك، لأنها نظام من الأنظمة التى يقصد منها نقل فردية رؤية المؤلف. فهناك أربعة منظورات رئيسية: منظور السارد ومنظور الشخصيات ومنظور الحبكة ومنظور القارئ المتخيل. ورغم كون هذه المنظورات قد تختلف حسب أهميتها، فلا تكون أي منها بمفردها مطابقة لمعنى النص. وما تقوم به هذه المنظورات هو إيجاد الخطوط الموجّهة التى تنبثق عن نقط الانطلاق المختلفة »[٨].

وإذا كان الأمر كذلك، أى إذا كان النص ليس حاملا لحقيقة، للحقيقة، ولكنه - كما يقول فوكو- مدار الصراع حولها[٩]، فإنه لن يعود، والحالة هذه، قادرا على حصر المعانى، وإنما لابدّ وأنه سيفيض لوحده. وهذا ما يجعل الترجمة كنسخة تطابق الأصل وتنقله، أمرا متعذرا بل مستحيلا. بل توجد نصوص مترجمة اليوم، ما يهمّنا فيها أساسا هو ما قامت به من تحريف لما اعتبر نصّا أصليا. هناك إذن ترجمات تكتسب أهميتها التاريخية من خيانتها للنص الذي تترجم له، وعدم وفائها للأصل إن صحّ التعبير. بل هناك من المفكرين اليوم من يهتمّ بالترجمة فقط بقصد الاغتراب والخروج من المألوف والابتعاد عن الاجترار واللغة المكرورة. فهم يأتون إلى الترجمة لما تنطوي عليه عملياتها من « خيانة »، و« غرابة »، و« هروب ». أجل، إن الترجمة كما يقول فاتيمو تقع على « خط هروب »، بل إنّ ماهيتها هي الهروب، « فأنا غير متيقّن من الإمساك بمعنى نصّ المنطلق، ولست أبدا سيّدا على معنى نصّ الوصول، فالمعنى ليس غير يقينى فحسب، بل إنه يتعذّر العثور عليه ». لنتأمّل العنوان الذى أعطاه « جوبوسكى » لعمله « مترجم عن الصمت »: فهذا العمل- حسب بلونشو- يشكّل نوعا من الرغبة التى يطمح إليها أدب « يريد أن يظلّ ترجمة خالصة، ترجمة ليس فيها ما يترجم سعيا للاحتفاظ من اللغة إلاّ على المسافة الوحيدة التى ترمى اللغة إلى الإبقاء عليها إزّاء ذاتها »[١٠]. إنّ النص المترجم - كما يقول بلونشو- « يحاكى عملية الإبداع التى تحاول أن تعطى الحياة للغة مغايرة يبدو ظاهريا أنها ذات اللغة المألوفة، تلك التى نحيا فيها وبها ونكون غارقين فيها، ولكنها تشكّل ما هو غائب عنها، مخالف لها، اختلافا لا ينفكّ يحصل، ولا ينفكّ يختفى »[١١].

إنّ الفكر يستعمل الترجمة كاستراتيجية لنفخ الحياة في النصوص، ونقلها من ثقافة إلى أخرى. بل إنّ الفكر، كما يقول « بنيامين » « لا يستمر فى الحياة إلاّ بفضل الترجمة ». وأشهر مثال على ذلك في الفلسفة هو أرسطو، الذى بعد أن تكلّم اليونانية كفّ عن الحديث بلغته ليتكلّم السريانية والعبرية فالعربية واللاتينية والألمانية، وربما اليوم هو يتحدّث الإنجليزية. فمن المعروف أن الترجمات العربية الأولى للفكر اليونانى كانت من السريانية ولم تكن قطّ عن اليونانية. وهذه الترجمات من الدرجة الثانية - إذا صحّ التعبير- كان لها وزن تاريخى، إذ هى التى غذت الفكر العربى الإسلامى في بدايته، ليس فحسب في مظهره الفلسفى وإنما أيضا في مظهره الفقهى والأصولي والكلامى. فعن طريق الترجمة تعرّف الفكر العربى على الحكمة اليونانية وآدابها وعلومها. هذا الدور ستلعبه اللغة

العربية ذاتها حينما ستضطلع بمهمّة نقل الفكر الإغريقي وخاصة في جانبه الفلسفي والعلمي بعد أن ترجمته وأوّلته وأعادت إنتاجه إلى العالم اللاتيني في بدايات عصر النهضة الأوروبي[١٢].

بل إنّ النص والفكر ذاته لا يحيان إلا لأنهما « قابلان للترجمة وغير قابلين لها في الوقت ذاته ». فإذا كان بالإمكان ترجمة نص ما ترجمة نهائية وكاملة، فإنه يموت كنص وككتابة وكفكر. إذ إن المحاكاة الأمينة « تقضي على عمل الترجمة من حيث إنها تكيّفها وتؤقلمها، وتنزع عنها امتياز الالتباس وعدم الاستقرار، الذي يرقى بعدّة مؤلّفات مترجمة إلى مستوى المؤلفات الرائعة »[١٣].

ذات الفكرة يعبّر عنها دريدا، حينما يذهب إلى أن الترجمة تعمل على بقاء « النص الأصلي»، حيث تمنحه حياة عليا وفائضا من القوة. بيد « أن النص « الأصلي » لا يعيش إن لم يكن موعودا بالبقاء، وهو لا يبقى إن لم يكن في الوقت ذاته قابلا وغير قابل للترجمة ». فالنص يكون غير قابل للترجمة بأن يقاومها برصيده غير القابل للمساس. عندما يكون النص قابلا للترجمة في كلّيته فهو في نظر دريدا يتلاشى بما هو نص، أي ككتابة وجسد لغوي. وإذا كان ممتنعا بالكلّية على الترجمة مات حالا، حتى في حدود ما نعتقد أنه يشكّل لسانه الأصلي أو لغته[١٤].

إنّ من اشتراطات الأمانة للمعنى وللمترجم إليه، « خيانة » المترجم للغة الانطلاق، أي عدم خضوعه للقيود التركيبية والصرفية والبلاغية للنص- الأصل، وهو ما يفيد احتفاء خاصا ومطلقا بالنص- الهدف. وبتعبير « والتر بنيامين » من النادر أن تنقل الترجمة الحرفية النص « الأصلي »، بل يستحيل في رأيه أن يتحقق « تطابق شكلي كلّي بين النصّين »، ذلك أنّ أحسن ما يمكن أن تمتدح به ترجمة ما هو « تمكين القارئ من الإحساس بأنه يقرأ نصا كتب في الأصل بلغة الوصول »، و« قدرتها (أي الترجمة) على التعبير عن حنين كبير إلى سمات وآثار تفتقر إليها لغة الأصل ». إنّ هذا ما يدعوه « بنيامين » بـ« الأمانة في حرية حركة اللغة »[١٥].

إنّ هذا ما يحتّم على المترجم الذي يريد أن يتفاعل بيسر مع قارئ لا يعرف اللغة المترجم عنها، أن ينزاح عن الطريقة التي تفرض بها هذه اللغة قيودها على التعبير عن المعنى، وذلك من أجل نقله في شكل مقبول ومستساغ، أي في شكل مختلف تمام الاختلاف.

من هذه الزاوية تكون الترجمة إجراء مماثلة ومغايرة: مماثلة للمعنى « الأصلي »، ومغايرة لوسائط « صياغته الأصلية ». ويكون الفرق بين الأصل والترجمة هو الفرق بين « الأنا و« الآخر »، فكلّ منهما يفترض الآخر، إنه هو وغيره، وتلك هي « حقيقة » الترجمة. إنها تناص intertextualité يلزمه أن « يحاكي » الآخر (الأصل) أي أن يكون إياه، وأن يكون في الوقت ذاته مكتوبا بلغة غير لغة الآخر. إنها عملية تحوّل مزدوج في القصد، قصد النص- الأصل الذي يصبح في لغة الوصول غير ما كان عليه بذاته. وهذا يعني أن الترجمة هي فتح اللغة على الخارج، وجعل المعاني تنفتح على آفاق لم تكن لتتوقّعها. ومن ثمة، فلا يجوز تقويم ترجمة نص بمقاييس « التطابق » و« الدقة » و« المعادلة » و« الأمانة » و« الوفاء » للغة الانطلاق، بل بمقياس خيانتها بالذات، هذه الخيانة التي تكمن في

قدرة النص- الهدف على الانزياح إلى أبعد حدّ ممكن من مستوى مماثلة الآخر إلى مستوى مغايرته. فإذا كان كل نص « فسيفساء من النصوص »- على حدّ تعبير « جوليا كريستيفا »- فإنّ هذا يجعله نصا على نص، فالنص المترجم كذلك نصّ يتمرّس بنص آخر، بما هو قراءة له، وفهم له، ونسيان له، ثم كتابة جديدة له[١٦].

وانطلاقا من منظور التناص هذا، فإنّ عملية الترجمة تعنى إنتاج نص ثان على نص أوّل بواسطة لغة تتمرّس بلغة - أصل. وعليه، فلا يمكنها إلا أن تكون « خائنة » بالمدلول الإبداعي للنعت، ما دامت تسعى إلى إنتاج نص مغاير في تماثله مع « الأصل ».

إنّ الترجمة « كخيانة إيجابية »، تقتضي الاعتراف بأنّ الترجمة ككل كتابة، هي فعالية تحويل وإعادة توليد. فترجمة نص ما هي تحويله وتوليده. والنص لن يموت ولن يفنى إلا إذا لم يعد قادرا على التوليد، إلا إذا لم يعد يطرح أسئلة. وفي هذه الحالة فإنه لا يترجم فحسب، وإنما لا يفكّر فيه وبه، ولا يتداول، ولا يؤوّل، بل لا يعود نصّا.

إن الترجمة نقل للنصوص وتحويل لها، إنها نسخ وإلغاء، إنها تحويل للغتين معا: اللغة المترجمة واللغة المترجمة. وعليه فاللغة المترجمة لا تخون اللغة المترجمة فحسب، وإنما تخون ذاتها. بل لولا هذه « الخيانة المزدوجة »[١٧]، لما كانت هناك ترجمة، ولما كانت هناك كتابة، بل ولما كان هناك فكر أيضا.

وإذا كانت كل ترجمة من حيث المبدأ « خيانة »، فإنّ ترجمة نصّ عن غير أصله يعتبر « خيانة مضاعفة ». فالانتقال من النص إلى ترجماته - يعدّ في نظر الموقف الميتافيزيقي- عملية انحدار وانحطاط. إنه انتقال من أصل إلى نسخ، ومن نموذج إلى أيقونات، ومن « عالم المثل » إلى « عالم المحسوسات »؛ وهو عملية ضياع وافتقار يتناقص فيها المعنى شيئا فشيئا. لكن ألا تنطوي هذه النظرة على سوء فهم لعملية الخيانة، وبالتالى لعملية الترجمة نفسها؟ ولماهيتها والتى هى ماهية تحويلية كما يقول دريدا؟[١٨].

لرفع هذا الالتباس الذي يتأسّس على ادّعاءين: ادّعاء وجود « نصّ أصلى »، وادّعاء أنّ « كل ترجمة خيانة، وأنّ كلّ خيانة هى سقطة »، سننطلق من أمرين:

أوّلهما: أن ما اعتدنا تسميته « نصّا أصليا » قد ينطوي هو نفسه على ترجمة أو ترجمات، بحيث قد يكون النصّ الأوّل نصّا ثانيا، ويكون الأصل منطويا على نسخ من أصول أخرى. ألا ينطبق هذا على النصوص المقدّسة ذاتها؟

ثانيهما، وجود ترجمات ترقى إلى مستوى « النص الأصلى » نفسه. يمكن الوقوف على هذه المسألة من خلال كتاب الفيلسوف الألمانى « فريدريك هيجل » « فينومنولوجيا الروح ». فالترجمة الفرنسية التى قام بها « هيبوليت »لهذا المؤلف لم تظهر إلا بعد قرن ونصف من ظهوره باللغة الألمانية. يقال أنّ القرّاء الألمان أنفسهم، ومنذ ظهور الترجمة الفرنسية أخذوا يستعينون بها لفهم النصّ الأصلى. لا يعنى هذا أنها ترجمة « طبق الأصل »، أي ترجمة « كاملة »، بل العكس إنها كانت من « الخيانة » والقدرة على التحويل حتى استطاعت أن تقرّب لغة هيجل إلى القرّاء الألمان. فهذه حالة تبيّن أن اللجوء إلى النسخة ضروري ضرورة اللجوء إلى « الأصل ».

نستنتج من هذه المسألة الأخيرة أن النص لا تتوقف ترجماته؛ لأنه عثر على ترجمته الكاملة، وإنما لأنه لم يعد مادة للتفكير، ولم يعد يحيا في لغات أخرى، وثقافات أخرى.

أمّا المسألة الأولى فتبيّن أنّ كل نص تناص، أي ينطوي على نصوص أخرى واقتباسات من لغات أخرى. فكل ترجمة مهما كانت، حتى وإن انطلقت من « نصّ أصلي » مزعوم، فهي ترجمة لترجمات، ونسخ لنسخ. فعلى عكس ما تذهب إليه الرؤية الأفلاطونية، فإن الاستنساخ لا يأتي بعد الأصول، وإنما يكون مولّدا لها. وإذا أضفنا ما تذهب إليه الشعرية المعاصرة، من أنّ النص حتى وإن لم يترجم، فهو ما أن يكتب حتى يدخل في دوامة التأويل اللامتناهية، فحينئذ لا يبقى للترجمة « كنسخة تطابق الأصل »، لا يبقى لها معنى كبير. إذ أي أصل هذا الذي نأخذ به؟ فكل ترجمة، والحالة هذه، نسخة عن نسخة[١٩]، وكلّ تأويل – كما يقول نيتشه– هو « تأويل لتأويل »[٢٠].

فسواء انطلقنا ممّا ندعوه نصا أصليا، أو من نص مترجم يتكلّم لغة غير لغته، فإننا لن نكون قطّ أمام أصل وفروع، أمام نموذج ونسخ. إننا لا نكون إلا أمام لحظة من لحظات الاستنساخ اللامتناهية. ومن أراد المعنى « الحقيقي » فلن يجده في طهارته في عالم مفارق، فليبحث عنه بالأولى بين النصوص وبين الترجمات في لعبة اختلافاتها[٢١]. وإذا كان المعنى ملتبس وغير يقيني، فلأنّ إمكان الترجمة، يتأسس – كما يقول فاتيمو– على المسافة الفاصلة بين المعنى والشكل، بين الدال والمدلول.

علينا إذن تجاوز الترجمة كميتافيزيقا، وذلك بإخراجها من مناخها الأنطولوجي الأخلاقي. وهذه المجاوزة هي ما يطلق عليه نيتشه « قلب الأفلاطونية »[٢٢]. على ألاّ نفهم هذه الصيغة كما فهمها هايدغر– من خلال قراءته المشهورة لفلسفة نيتشه[٢٣]–، إذ هي لا تعني إحلال عالم المحسوسات محلّ عالم المعقولات، وإنما هي الإعلاء من شأن النسخ السيمولاكر على حساب النسخ الأيقونة. والسيمولاكر ليس مجرّد نسخة اعتباطية، ليس مجرّد تحريف وتشويه لأصل ما، إنه ليس نسخة محرّفة، هذا بالرغم من أنّه يريد أن يكون فضيحة للقانون والنحو اللذان يجمّدان اللغة، ويسقطان الكتابة في التكرار والاجترار. بهذا المعنى يقول « دولوز »: « إنّ السيمولاكر يفصح عن قوة إيجابية، تنفي الصورة الأصلية والنسخة معا، كما تنفي النموذج الأصلي والاستنساخ »[٢٤].

تجاوز الميتافيزيقا هنا يعني تجاوز الصورة السلبية عن الترجمة بما هي « خيانة للمعنى الأصلي »، حيث سلسلة الخيانات المتلاحقة التي تحدث بتعدد اللغات والثقافات التي ينقل إليها المعنى الأصلي، تؤدّي إلى ذوبان المعنى وضياعه. ممّا يعني أنه كلما اقتربنا من نقطة الانطلاق ومصدر المعنى ومكان الأصل، ازددنا قربا من « نور المعنى الحقيقي »، وقلّ الضياع وضعفت الخيانة؛ وكلما ابتعدنا عنه شحبت وضاعت المعاني. من هنا ضرورة العودة إلى نقطة الانطلاق، ومواجهة باستمرار الصورة النهائية بالأصل. يعني هذا أن عملية الترجمة بما هي توليد المعاني ونقلها عبر اللغات والنصوص، تطرح داخل « زمنية دائرية مغلقة » تقول بالتطابق، أي تطرح داخل مفهوم ميتافيزيقي عن التكرار يقول بالرجوع إلى نقطة البداية والأصل المفقود.

الترجمة كاستراتيجيه للفكر، هي إخضاع المعاني

لعملية توليد متواترة، من حيث إنها تشكو من نقص وعدم اكتمال أوّليين. وبحكم ذلك فهى تقبل منذ البداية اختلاف النسخة عن أصلها. إنها استراتيجية لتوليد الفوارق وإقحام الاختلاف داخل الهوية، والتعدد داخل الوحدة، والآخر داخل الذات. وهذه الصورة الجديدة محاولة لتجاوز الصورة الدائرية المغلقة، فهى تقحم المعاني داخل الحركة الفعلية للتاريخ، وتقضى على هيمنة الأصل وسيادته. كما أنها تنزع عن الترجمة مسحتها الأخلاقية لترى فيها تحويلا وإعادة إنتاج. إن الترجمة هنا لا تتمّ من نسخة إلى أخرى تلغى السابقة وتتقدّم عليها وفقا للحركة الديالكتيكية. بل إن كانت تتقدّم، فهى لا تتقدّم وفقا للمسار الجدلى الهيجلى، وإنّما وفقا لما يدعوه نيتشه بـ « العودة اللامتناهية للأصول فى اختلافها ». يتعلّق الأمر هنا بمفهوم جديد للتكرار، هو مفهوم « العود الأبدي للمثل » L'éternel retour du même. لا يتعلّق الأمر، مرّة أخرى، بالرجوع إلى المفهوم اللاهوتى عن الترجمة بما هى حركة دائرية تروم الاستنساخ واستعادة الأصول. بل يتعلّق الأمر هنا ب « تفجير الدائرة » اللاهوتية وتفكيكها، لا لتتحوّل إلى خط ميتافيزيقى مستقيم، وإنما لتولّد دوائر لا تنفكّ عن التوالد[٢٥]، ولتكرّر « أصول » لا تنفكّ عن الاختلاف.

==========

الهوامش :

1- Amparo Hurtado Albir, La notion de fidélité en traduction, 4- La question de la fidélité :un débat philosophique factice ?, p39 à p44, Didier erudition, 1990.

٢- يمكن الرجوع بصدد مفارقة الترجمة بين الإمكان والاستحالة إلى:

Jean – René Ladmiral ،Traduire :théorèmes pour la traduction,3- La problématisation de l'objection préjudicielle, p85, Gallimard, 1994 .

٣- محمد مفتاح، « درجات الأيقون وترجمة الشعر »، مائدة مستديرة نظمتها منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط تحت عنوان:« الترجمة والتأويل »، سلسلة ندوات ومناظرات رقم٤٧، سنة ١٩٩٥.

٤- كاظم جهاد، « جاك دريدا أو الترجمة الأصلية »، ص١٢٥، مجلة الكرمل.

٥- يمكن الرجوع بصدد هذه المسألة إلى:

George Mounin, Les problèmes théoriques de la traduction, Civilisations multiples et traduction, p225, et, Syntaxe et traduction, p249, Gallimard,1963.

6- John Johnston ،« Translation as Simulacrun », in Rethinking Translation, ed. Byl, p43, 1992.

7- George Steiner, After Babel, p301, Oxford Univ. Press, N.Y. and Conclon, 1975.

8- W.Iser ،The act of Reading, The Jhons Hopkins, Univ. Press, U.S.A., 1978, p182

٩- ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ص١٠، ترجمة د. محمد سبيلا، دار التنوير للطباعة والنشر، ١٩٨٤.

10- Blanchot, La part du feu, Gallimard, 1972, p174,.

11- Ibid ،p185.187.

١٢- عبد السلام بنعبد العالي، في الترجمة، ص٥٠، ٥١، ٥٢، سلسلة شراع، العدد٤٠، ١٩٩٨.

13- Ibid ،p177.

١٤- كاظم جهاد، جاك دريدا أو الترجمة الأصلية، ص١٢٧، مجلة الكرمل، العدد.

15- W.Benjamin, La tâche du traducteur, in Mythe et violence, Paris, Denoël,1971.

١٦- رشيد بنحدو، الترجمة سيرورة تواصل وتناص، ص٦٨، الترجمة والتأويل، سلسلة ندوات ومناظرات رقم٤٧، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٩٥.

١٧- يمكن الرجوع بصدد هذه المسألة بصفة خاصة، وبصدد الترجمة من منظور فلسفي واستشكالي بصفة أخصّ، إلى كتيّب الفيلسوف المغربي المعاصر عبد السلام بنعبد العالي، الذي يحمل عنوان « في الترجمة ». وهو أحد المراجع الرئيسة المعتمدة في هذا المقال. والميزة الأساسية التي تنفرد بها هذه الدراسة، تتمثّل في كونها أول دراسة فلسفية أنجزت عن الترجمة في الثقافة العربية المعاصرة. بل أكثر من ذلك، إنها تنطلق في مفاهيمها وتصوراتها عن الترجمة من آخر ما وصل إليه الفكر الفلسفى الكوني المعاصر.

١٨- عبد السلام بنعبد العالى، في الترجمة، ص٥٤،٥٣، مرجع سابق.

١٩- المرجع السابق، ص٦٠.

20- Foucault(M),« Nietzsche, Freud, Marx », in « Nietzsche », Cahiers de Royaumont،les éditions de Minuit.1967 .

٢١- في الترجمة، ص٦٠، نفس المرجع.

22- F.Nietzsche, Gai savoir.

٢٣- يمكن الرجوع بصدد « نقد القراءة الهايدغرية لنيتشه »، إلى مؤلف، محمد أندلسى:« الفلسفة من منطق العقل إلى منطق الجسد »، جينيالوجيا الخطاب الميتافيزيقى. منشورات عكاظ الرباط، ٢٠٠٣.

24- G.Deleuze, Logique du sens, p357, U.G.E Coll.10-18, Paris.

٢٥- عبد السلام بنعبد العالى، فى الترجمة، ص٦٦،٦٥، مرجع سابق.

* * * *

This document was created with Win2PDF available at http://www.win2pdf.com.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.
This page will not be added after purchasing Win2PDF.